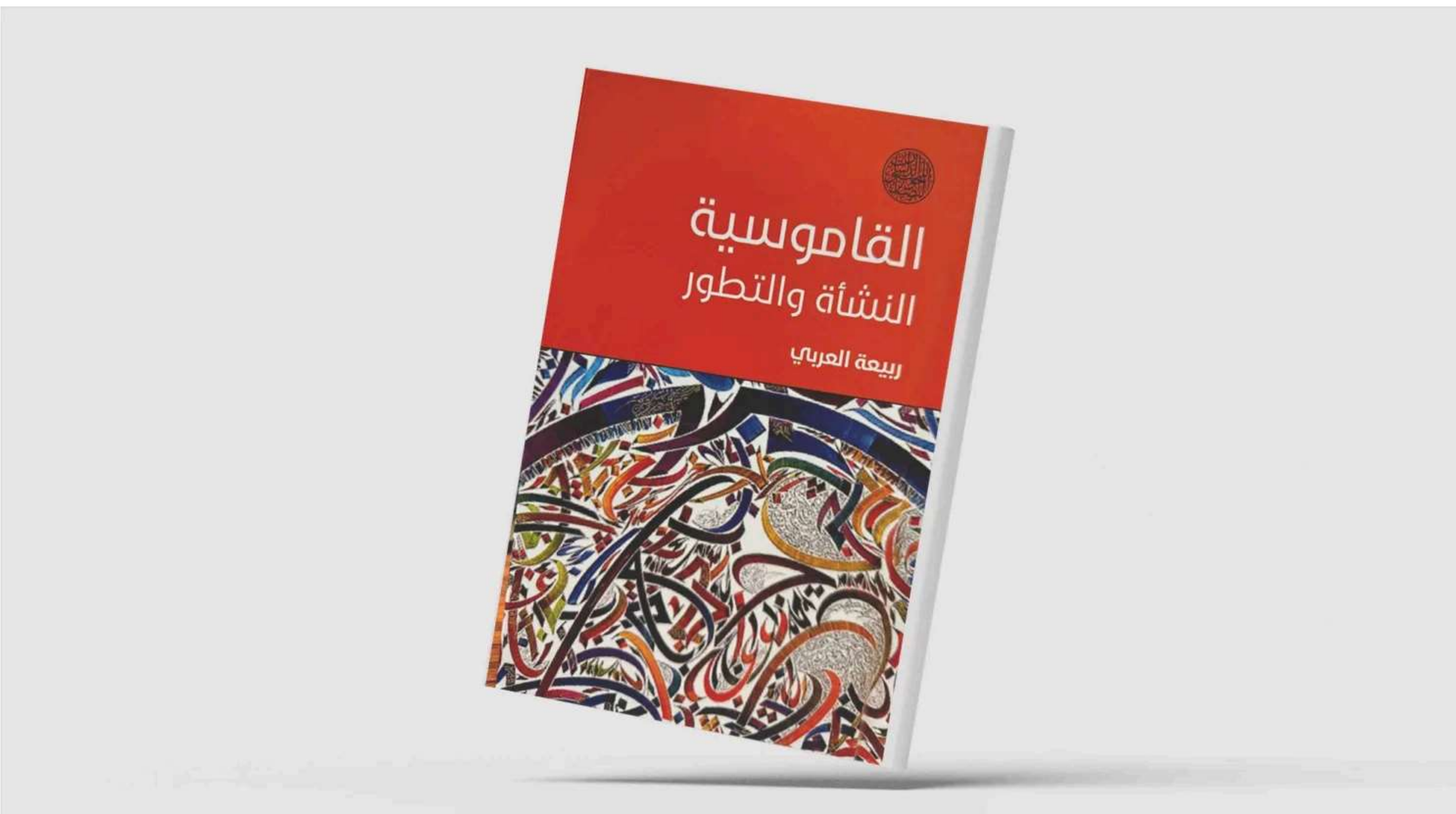
القواميس... بنك اللغة وجسر تواصل الشعوب

باحثة مغربية تتبع دورها في توثيق المفردات المعجمية



الدمام: «الشرق الأوسط»

نُشر: 19:07-12 نوفمبر 2025 م . 22 جمادي الأول 1447 هـ

صدر أخيراً كتاب «القاموسية: النشأة والتطور» للكاتبة المغربية الدكتورة ربيعة العربي، عن «مركز أبوظبي للغة العربية».

ويتناول الكتاب الفارق بين «القاموس» و«المعجم» ودور وأهمية كلٍّ منهما، والاستفادة من القواميس القديمة للحضارات والأمم المختلفة، في عملية الصناعة القاموسية، التي تُعد مورداً مهماً من موارد اللغة والثقافة، وتحافظ على هوية الشعوب من خلال توثيق مفردات اللغة واللهجات وطرق النطق، ودلالة المفردات، كما تُعد وسيلة للتواصل بين الشعوب.

يقع الكتاب في أربعة فصول، يحمل الفصل الأول عنوان «أوليات منهجية»، وتستعرض فيه الكاتبة تعريف القاموسية، والفرق بين القاموسية التطبيقية والنظرية، وبين القاموس والمعجم، وعلاقة القاموسية ببعض العلوم الأخرى.

أما الفصل الثاني فيأتي بعنوان «القاموسية في الحضارات القديمة»، تتبع من خلاله المؤلفة مسار الصناعة القاموسية في الحضارات القديمة.

وجاء الفصل الثالث بعنوان «القاموسية العربية والعبرية»، وتعرض فيه الكاتبة لتاريخ القواميس العربية والعبرية وأشهر القواميس.

وفي الفصل الرابع بعنوان «القاموسية الغربية»، تذكر الباحثة أن الصناعة القاموسية الغربية، تجاوزت الدور التقليدي المنوط بها، والمتمثل في جمع الثروة اللغوية وتصنيفها وفق قواعد معيارية، إلى الإسهام في توسيع النطاق الجغرافي للغات، وذلك بالتركيز على الجانب التعليمي الذي استهدفت به أساساً المتعلم الأجنبي.

مسار تاريخي

ويسرد الكتاب التطورات والتغيرات النوعية، سواء في التصور أو المنهج، التي واكب مسارها التاريخي ظهور مجموعة من القواميس التي اختلفت خواصها وطرائق جمعها للمادة وتبويبها، والمعايير التي ارتكزت عليها، وذلك باختلاف مقاصدها ووظائفها.

ووجدت الصناعة القاموسية - على اختلاف مقاصدها والدواعي التي بلورتها وحددت مساراتها - بداياتها في قوائم محدودة من الكلمات، وكانت هذه القوائم البذرة الأولى لتشكُّل القواميس. وهذا المعطى المحدد نجده متواتراً في مختلف الحضارات وعند مختلف الأمم والشعوب، وهو ما يدعو إلى استنتاج أن البدايات التأسيسية واحدة، وإن اختلف الزمان والمكان. ولئن كانت البدايات واحدة، فإن الغايات قد تعددت وتفرعت ما بين غاية دينية، وغاية فلسفية، وغاية أدبية. غير أن المؤطر لكل هذه الغايات أن جميع الحضارات قد صرفت اهتمامها إلى جمع ألفاظها باعتماد معيارين محددين نراهما يحضران بنسب متفاوتة في القواميس كلها. هذان المعياران هما: معيار الكم، ومعيار الكيف. وإذا كان الدافع وراء تبني المعيار الأول هو الإلمام باللغة، وحشد جميع ألفاظها، فإن الدافع وراء المعيار الثاني هو تنقية اللغة من الشوائب، وحصر الألفاظ الفصيحة والراقية، وترك المهمل منها والمستهجن.

وتأسست «المعجمية» قديماً بوصفها فرعاً من اللسانيات، وهي تعني علم الكلمة، وتفسير كل ما يتعلق بمعرفة الكلمات، وتهتم بالمادة والقيمة والأصل، ويعرفها البعض بأنها «فرع من فروع علم اللغة يقوم بدراسة وتحليل مفردات أي لغة بالإضافة إلى دراسة معناها أو دلالتها المعجمية بوجهٍ خاص وتصنيف هذه الألفاظ استعداداً لعمل المعجم، وهو علم نظري يدرس المعنى المعجمي وما يتصل به من قضايا دلالية».

وحسب الكتاب، تنقسم المعجمية إلى قسمين: «المعجمية العامة»، التي تهتم بدراسة المفردات بصرف النظر عن المظاهر الخاصة لأي لغة من اللغات. و«المعجمية الخاصة»، التي تهتم بلغة خاصة، وذلك بدراسة مفرداتها ووحداتها، وطبيعة المفردات في مرحلة زمنية محددة، وأصل المفردات وما يطرأ عليها من تغيرات، فهي تعد معجمية تاريخية ومعجمية مقارنة.

القواميس الصينية

حسب الباحثة المغربية، عرف الصينيون القواميس منذ 200 ق.م، ويُعد «إريا» أقدم قاموس، وقد شكل النواة المركزية للصناعة القاموسية الصينية، وبعده ظهرت عدة قواميس منها: قاموس شوفان عام 150 ق.م، وقاموس شيزو عام 9 ق.م، وقاموس يوبيان عام 530م.

وقد أسهم انتشار المسيحية خلال القرن السادس عشر في انتشار الثقافة الصينية، وخاصة في البلدان المجاورة مثل كوريا واليابان وفيتنام، مما أدى إلى انتشار القواميس الصينية الثنائية اللغة (القواميس الصينية الحديثة)، فظهرت قواميس تجمع بين الصينية والإنجليزية، والصينية واللاتينية، والصينية والهندية. وقد تميزت القواميس في تلك المرحلة بالتركيز على اللغة المنطوقة والعناية بالكلمات المعجمية، وظهور قواميس منظمة وفقاً للترتيب الألفبائي، مما أدى إلى ارتفاع عدد القواميس الصينية بشكل كبير، والاعتراف بالقواميس بوصفها مجالاً أكاديمياً، وتأسيس الجمعية الصينية للكتابة المعجمية. وتعددت أنماطها.

القواميس الهندية

تعود القواميس الهندية لأكثر من ألفي سنة، غير أن أقدم ما وصل إلينا من القواميس الهندية يعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وكان المحرك الأساسي لها هو الباعث الديني؛ إذ نشطت الحركة القاموسية عند الهنود حول الكتاب المقدس «الفيدا»، وقد اتخذت في بدايتها شكل قوائم تضم الألفاظ الصعبة الواردة في «الفيدا» مع إيراد شروحات لها.

واستندت القواميس إلى ترتيب الكلمات وفق معانيها وليس إلى الترتيب الألفبائي، وكانت تراعي في ترتيب الكلمات الحقول المعرفية التي تنتمي إليها كعلم الفلك والرياضيات والطب وغيرها.

القواميس الفارسية

يعتبر أهم قاموس فارسي وصل إلينا هو قاموس لغة الفرس، الذي ألفه أبو منصور السعدي، ورتبت فيه المداخل تبعاً للحرف الأخير لمساعدة الشعراء في إيجاد القافية المناسبة، وقدمت مرفقة بأبيات شعرية، وبه أبواب كتبت باللغة العربية مثل باب الألف والباء والتاء، واستمرت صناعة القاموسية الفارسية، ومن أهمها قاموس «برهان القاطع» الذي ألفه محمد حسن التبريزي عام 1724م.

ومرت مرحلة الصناعة القاموسية الفارسية بعدة مراحل منها: مرحلة ما قبل العهد المغولي، حيث اتسمت القواميس في تلك المرحلة بتركيزها على الشعر الفارسي، وذلك بعد تحول اللغة الفارسية إلى لغة البلاط والأدب. ومرحلة العهد المغولي، ومنها قاموس مجمع اللغات لأبي الفضل العلامي، واتجه هذا النوع من القواميس إلى جمع المفردات أو التعابير الصعبة الواردة في شعر شاعر أو كاتب معين. ومرحلة العهد الجديد، وظهرت القواميس الثنائية التي تجمع اللغة الفارسية واللغة العربية.

القاموسية العربية

تذكر الباحثة في الفصل الثالث أن الاهتمام بالصناعة القاموسية العربية بدأ في القرن الأول الهجري، وكانت الغاية الدينية هي المحددة لنشأتها، وشكل الاهتمام بغريب القرآن البذرة الأولى التي قادت السعي إلى جمع الألفاظ الغريبة الواردة فيه، وتدقيق دلالاتها إلى جانب الاستشهاد لها بالشعر الجاهلي، للتدليل على أنها من كلام العرب، ويرجح أن أول كتاب صنف في غريب القرآن كان من تأليف عبد الله بن عباس عام 68 هجرياً، والبعض يرجح أنه أبو سعد أبان بن تغلب عام 141 هجرياً.

وقد مرت الصناعة القاموسية العربية بثلاث مراحل هي: جمع الكلمات في شكل مسارد أي في قوائم دون ترتيب، ثم جمع الكلمات تبعاً للموضوعات، ومرحلة جمع الكلمات تبعاً لترتيب مخصوص، وكانت تهدف لجمع ألفاظ اللغة العربية وتبويبها. وقد ظهرت القواميس الحديثة في القرن الثامن عشر، مثل المعجم الوسيط، وقاموس «الغني الزاهر» لعبد الغني أبو العزم.

القواميس العبرية

تأثرت القواميس العبرية بالقواميس العربية، فسارت على منحاها من حيث طرائق الترتيب وصيغ التناول، وتعود أصولها إلى العصور الوسطى، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأصول القاموسية العربية، لدرجة أنه لا يمكن فصلها عنها. فقد كان الإسلام في تلك العصور في أوج ذروته، ومكن من الانفتاح الثقافي والعلمي في كل الاتجاهات؛ لذلك كان من الطبيعي أن يجعل اليهود من اللغة العربية وسيلة للمحافظة على تراثهم، حيث كتبت قواميسهم بلغة عربية وبحروف عبرية مع الاستشهاد بالشعر العربي وأقوال النحاة والفلاسفة العرب، بل إنهم ذهبوا إلى حد الاستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

مواضيع كتب السعودية